

مفهوم الوسطية في الخطاب الإسلامي المعاصر

عبد العزيز راجل
باحث مغربي



قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة

سال مداد كثير حول الحديث عن الوسطية، وترسخ الاعتقاد لدى الكثيرين بكون الإسلام دين الوسط، ورفعت مؤسسات ومنظمات وحركات شعار "الوسطية" وجعلته من مبادئها ومرتكزاتها في السلوك والعمل والاعتقاد، وعرف المصطلح حضورا مكثفا في وسائل الإعلام المكتوبة والمرئية والمسموعة، وقد اتخذ المفهوم أبعادا مختلفة ومتعددة، لاسيما مع ولوج الحركات الإسلامية الحقل السياسي في عدة بلدان، ومما زاد الطين بلة الحملة العالمية على الإرهاب والربط التعسفي له بالإسلام، فأضحى الكل يتحدث عن وسطية الإسلام واعتداله... وفي خضم هذا الجو، أجواء الدفاع عن الإسلام، ورد التهم الموجهة للمسلمين، انبرت أفلام لمقاربة المفهوم/المصطلح مقارنة نقدية، بتتبع دلالاته واستعمالاته السلبية والإيجابية، وكان المنطلق هو النص القرآني الذي وردت فيه كلمة وسط "الأمة الوسط" لمحاولة الفهم والاستيعاب، وإزالة الالتباس، وجلاء الصورة حول حقيقة "وسطية الإسلام".

ثمة أسئلة كثيرة تمور في الذهن حول هذه الموضوعات الملتبسة من قبيل: هل تعتبر الوسطية تصورا أو منهجا للتغيير أم مشروعاً حضارياً، أم طريقة في التفكير؟ وهل ثمة علاقة بين "الأمة الوسط" والوسطية بشقيها الفكري والسياسي؟ وما هي التداعيات السلبية الناجمة عن الطرح الوسطي للإسلام؟ وهل مفهوم الوسطية كما هو متداول وشائع لدى النخب والأفراد، يتطابق وما قصده الوحي؟

ماهي معايير وسم مجموعة ما أو فريق معين بكونه يتبنى وسطية الإسلام؟ وهل هذه الوسطية أو الوسط كمي أو كيفي؟ وهل يمكن أن نتحدث عن تعدد الوسطيات الإسلامية بين مختلف البلدان؟ وهل صحيح ما قيل أن الوسطية حلت مشاكل وإشكالات الأفراد والمجتمعات؟

تتعدد الأسئلة وتتشابك بقدر حجم الغموض والالتباس الذي يكتنف المفهوم.

ومن ثم سنحاول تناول الموضوع، انطلاقاً من دراسة المصطلح كما ورد في القرآن بتتبع دلالاته واشتقاقاته، كما نعرض لبعض آراء العلماء والمتفكرين والمفكرين المعاصرين الذين قاموا بمراجعة المفهوم السائد في ضوء قنليات كل واحد منهم المعرفية والفلسفية والسياسية...

تمهيد في المصطلح القرآني

يثير التعبير بالمصطلح القرآني بعض الحرج لدى بعض الباحثين، فتغاضوا عن ذلك، بالتعبير "بعادات القرآن". كما ذهب إلى ذلك الشيخ الطاهر ابن عاشور، وقبله بعض قدامى المفسرين مثل الزمخشري والرازي... وذلك لما يوحى به لفظ المصطلح من معنى إنساني، إذ هو تواطؤ بين طرفين من الناس على مدلول معين أو تركيب لتيسير تبليغ المعاني وفهمها بينهما. وفي السياق نفسه، يحاول الدكتور عبد المجيد النجار أن

أو "كذلك جعلناكم أمة وسطا" قال الزجاج: فيه قولان، قال بعضهم وسطا عدلا، وقال بعضهم خيارا. واللفظان مختلفان والمعنى واحد، لأن العدل خير والخير عدل؛ وقيل في صفة النبي صلى الله عليه وسلم: إنه كان من أوسط قومه؛ أي خيارهم، تصف الفاصل النسب بأنه من أوسط قومه...⁶ جاء في مختار الصحاح: وس ط: وسط القوم من باب وعد، و(سطة) أيضا بالكسر؛ أي توسطهم والأصبع "فوسطن به جمعا" بالتشديد.

التوسيط أيضا قطع الشيء نصفين والتوسط بين الناس من الوساطة، والوسط من كل شيء أعدله ومنه قوله تعالى: "كذلك جعلناكم أمة وسطا"؛ أي عدلا، وشيء وسط أيضا بين الجيد والرديء.⁷

قال الشاعر أبو فراس الحمداني:

ونحن أناس لا توسط بيننا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر

المعاني الاصطلاحية للوسط:

يروى ابن جرير الطبري بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما تفسير قوله تعالى: " جعلناكم أمة وسطا"؛ أي: جعلناكم أمة عدولا، وأضاف الطبري خيارا، قال ابن يزيد: أمة وسط بين النبي والأمم. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم- وسطا في قومه.

عندما تطرح الوسطية، تفيد العدل والحكمة، والاعتدال والتوازن، الوسطية بين الإفراط والتفريط بين التقصير والغلو، فهي الحق بين باطلين والعدل بين ظلمين، وتستوحي هذه المعاني من آيات عديدة منها قوله تعالى: "وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله".

تصنيف وإحصاء:

وردت كلمة وسط ومشتقاتها في القرآن في خمسة مواضع في سورة البقرة في الآية 143 و238 وفي سورة العاديات الآية 05، وفي سورة المائدة الآية 89، وفي سورة القلم الآية 28.

- قال تعالى: "حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى" البقرة 238.

- وقال عز وجل: "فأثرن به نقعا، فوسطن به جمعا" العاديات 05.

⁶ - نفس المرجع ص 296

⁷ - هذا المعنى هو الذائع والشائع بين مختلف التيارات والاتجاهات الإسلامية الدينية.

- وقال تعالى: "من أوسط ما تطعمون أهليكم" المائدة 89.

- وقال أيضا: "فقال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون" القلم 28.

- وقوله تعالى: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا" البقرة 143.

عدد المصطلح في القرآن	عدد السور التي ورد فيها	مكية	مدنية
خمس مرات (05)	أربع سور (04)	مكيات (02)	مدنيات (02)

من خلال تتبع الكتابات التي تناولت مفهوم الوسطية، نجد أنها تركز على المعنى اللغوي وما أورده المفسرون حولها، والخلاف الذي أثير كان حول المقصود بالأمة الوسط كما جاء في سورة البقرة/ الآية 143، والملاحظ من خلال الحديث عن الوسطية في الإسلام، نجد بعض رموز الاتجاه السلفي يحاول التأسيس للمصطلح من خلال الأحاديث النبوية الشريفة التي تحدثت عن بعض المعاني القريبة من الوسطية، ويذهب إلى أن تحديد الوسط يقتضي العلم بالقواعد الشرعية والالتزام بالكتاب والسنة في ذلك، والاتجاه الإخواني، والذي تمثله مدرسة حسن البناء، حاول تغذية المفهوم ليشمل مجالات عدة في الاعتقاد والشريعة والاصطفاء. الوسطية في منظور كلا الاتجاهين الوسطية هي حالة هندسية؛ أي وسط حسابي؛ فالوسط الإسلامي هو المنتصف، وفيما يلي بعض تعاريف هذين الاتجاهين لمصطلح الوسطية.

الاتجاه التبسيطي/ الأرسطي:

يعرف الشيخ يوسف القرضاوي في كتابه "الخصائص العامة للإسلام: الوسطية بما يلي: "الوسطية يعبر عنها بالتوازن، ونعني بها التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين (...). مثال الأطراف المتقابلة أو المتضادة: الروحية والمادية، الفردية والجماعية، الواقعية والمثالية، (...) كما ذكر بعض مزايا الوسطية وفوائدها؛ الوسطية تعني العدل، الاستقامة، دليل الخيرية، تمثل الأمان، دليل القوة، مركز الوحدة...، ويفصل في مظاهرها في الاعتقاد والعبادات والشعائر والأخلاق.⁸

ويذكر الشيخ سلمان بن فهد العودة ذات المعنى؛ بقوله الوسط يقصد به التوسط بين طرفين متباعدين متناظرين، والوسط بمعنى العدل، الخيار ليستدرك بقوله إننا لا نملك تعريفا دقيقا للوسطية، ويمكن تعريفها بمعالمها، وهي: التيسير، السداد، القرب من الصواب، إشاعة روح الاستبشار "أبشروا"، مستمدا هذه المعالم من الحديث النبوي الشريف، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن هذا الدين يسر ولن يشاد

⁸ - القرضاوي، يوسف، الخصائص العامة للإسلام، دار المعرفة، البيضاء، ص 127

لا بد أن يمثل مفهوم الوسطية توصيفا جامعا لمتتالية تجديد سرمدية لأجندة فكرية، أو إيديولوجية يتحدد مركزها وفق ما يثيره الواقع (واقع الذات وواقع الآخر) من تحديات متجددة.¹²

وإذا تأملنا معنى الوسطية لدى الدكتورة منى أبو الفضل، نجد رؤيتها للوسط رؤية جامعة وشاملة، والوسطية طريق ثالث، فضلا عن أنها نموذج وحالة وموقف، وليست متوسطا حسابيا، فالأمة الوسط في منظور الإسلام:

1- من حيث كون الجماعة التي يعبر عنها محور جذب واستقطاب، ومن ثم هي مصدر للتوازن والانسجام بين الجماعات البشرية.

2- "أمة وسط" من حيث الاعتدال في المزاج، واجتناب الإفراط والتفريط.

3- "وسط" من حيث موازين القيم والأنظمة التي تقوم عليها، فالنسق القيمي الإسلامي يوازن بين القيم الفردية والجماعية والمسؤوليات؟ أي الواجبات والحقوق الاجتماعية.

أما الملحوظة الأخيرة التي يمكن أن نشير إليها في سياق دلالات الوسطية، فهي خاصة بجغرافية الموقع؛ حيث إنه من الملفت للنظر حقا أن الحزام القاري الإسلامي، يمثل امتدادا استراتيجيا إقليميا وبشريا متصلا يتوسط المعمورة حتى أن هناك من أطلق عليها اسم "القارة الوسطية"¹³. بتعبير آخر مفهوم الوسطية الإسلامي لدى منى أبو الفضل، لا يتعامل بطريقة الوسط الحسابي الأرسطي؛ حيث يعد الفضيلة بأنها الوسط بين رذيلتين؛ إنما هو قائم على منظومة متكاملة من الممارسات والسلوكيات والأفكار التي تتفرع عن مركزها، وهذا المركز هو التوحيد (حوار مع د. منى أبو الفضل، في موقع إسلام أون لاين).

وقد تناول أحد الباحثين الأمة والوسط من خلال ثلاث مقاربات في كل واحدة تتخذ الأمة الوسط معنى معيناً، ففي المقاربة الشرعية والمقاصدية للأمة الوسط: نفس أمة الاعتدال والسماحة وسهولة المعاملة، وفي المقاربة الحضارية لمفهوم الأمة الوسط: تعني الفاعلية الحضارية والعمق الاستخلافي، وهنا مفهوم الأمة الوسط غير منفصل عن مفهوم الشهود الحضاري ليخلص إلى مفهوم جامع شامل، الأمة الوسط تلك الجماعة البشرية المتنوعة والمنتامية التي تعمل على تجسيد وتجديد الوعي بالحقائق الدينية والتاريخية والثقافية والنفسية والعمرانية للإسلام، فالأمة الوسط هي ذلك التجمع الإنساني المركب المستوعب لخلاصات وخبرات الوعي

¹² - وسام فؤاد: رئيس وحدة البحوث والتطوير بشبكة إسلام أون لاين، "الوسطية تراجع نفسها... لماذا الآن؟" نفس الموقع www.islamonline.net.

¹³ - منى عبد المنعم، أبو الفضل، "الأمة القطب نحو تأصيل مناهجي لمفهوم الأمة في الإسلام"، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، القاهرة، 1996م، ص45

الوسطية: مكانية جغرافية:

الوسطية – بنظر حاج حمد (ت2004) - مكانية ربطها الله عز وجل بالحضور لقوله تعالى: "لتكونوا شهداء على الناس" والشهادة على الناس يلزم عنها الحضور؛ فمصطلح "الأمة الوسط" يحمل في جوفه الاصطفاء الرأسي النبوي، ويحمل في جوفه تقديس الأرض الكنعانية، وكذلك تحريم الأرض في الحجاز، ونزول الكتب السماوية، وكلها دلالات جغرافية؛ لذلك جعلها الله منطقة إشعاعية للعالم، وهذا هو مفهوم "الأمة الوسط" ولا علاقة له بالتوسط بين الشيئين. ويميز حاج حمد في كتاباته ومحاضراته بين الأمة الوسط والوسطية، يقول: قد اتخذ البعض مفهوم "الأمة الوسط" دعوة للوسطية الفكرية والسياسية، وليس القرآن بأي وجه من هذه الوجوه؛ إذ أن القرآن "منهجي" له ضوابطه المعرفية، ويحدد للأمة الوسط مكانتها؛ حيث تمتد الرقعة الجغرافية والبشرية للأمة الوسط ما بين الأرضين "الحرام" حيث منطلق الدعوة، والأرض المقدسة حيث امتدادها؛ وحيث يخرج الأميون بعد أن تحولوا إلى كتابيين باتجاه الأرض المقدسة وما حولها لتكوين الأمة الوسط.

جعل حاج حمد دلالة واحدة لمفهوم الأمة الوسط، وهي الدلالة المكانية الجغرافية دون أن يحيط مفهومه بدلالات متجاوزة كما نجد عند غيره، وهي تتدرج عنده في سياق منهج يتبناه قد عرض لتفاصيله في كتابه العالمية الإسلامية الثانية.

وتلتقي الدكتورة منى أبو الفضل مع حاج حمد في إشارتها أن الوسطية في الإسلام تشمل جغرافية الموقع؛ حيث إنه من الملفت للنظر أن الحزام القاري الإسلامي، يمثل امتدادا استراتيجيا إقليميا وبشريا مستقلا يتوسط المعمورة حتى أن هناك من أطلق عليه اسم القارة الوسطية¹⁸. وكذلك أشار الأستاذ أبويعرب المرزوقي -الذي سنتوقف عند رأيه بتفصيل حول الوسطية- عند حديثه عن المقومات التي تتألف منها الوسطية المقصودة كما تحددها الآيات الخمسة، ذكر منها الوسطية الجغرافية بين الحضارات الشرقية والغربية.

الملاحظ أن أغلب الباحثين يربطون الوسطية والأمة الوسط بالحضور والشهادة على الناس؛ -ذكر ذلك حاج حمد كما أشرنا آنفا- وذكر الدكتور عبد الصبور شاهين(ت2010): "الأمة الوسط هي ذات الحضور والموقع المتميز المهيمن على سائر الأمم؛ ولذلك ربطت الآية الوسطية بالشهادة على الناس؛ أي على سائر الأمم أو الأقوام، وما ينبغي لمن تصدى للشهادة أن يتهيا لأدائها إلا أن يكون له "حضور" في العالم: حضور في الناس ليشهد بين يدي الله عليهم بالحق، وإلا كان شاهد زور يكشف عن زوره وزيف شهادة الرسول،

¹⁸ - الأمة القطب، منى أبو الفضل، ص 45

"ويكون الرسول عليكم شهيدا"¹⁹. اعتبر أبويعرب المرزوقي الوسطية القرآنية كما تحدها الآيات الخمسة ليست قيمة مكلفا بها، بل هي حال وجودية حاصلة ترتب عليها تكليف المسلمين بالشهادة.

وفي معرض تفسيره للآية "وجعلناكم أمة وسطا" ذهب الأستاذ عمر حيدوسي إلى أن الأمة الوسط من الوساطة لا من الوسطية، ولماذا أمة الوساطة؟ لتكون أمة الشهادة؛ هي وسط بين النبوة والبشر تشهد على البشر في الدنيا، ويشهد عليها الرسول في الآخرة²⁰. يضاف إلى جانب الربط بين الحضور والشهادة؛ مواصفات الأمة الوسط؛ وتقول في الصدد ذاته منى أبو الفضل (ت2008) في معرض وصفها للأمة القطب الأمة الوسط هي الأمة المستخلفة في الأرض؛ أي أنها الأمة، وليست أمة من الأمم... فالأمة الوسط في منظور الإسلام، أولا: من حيث كون الجماعة التي يعبر عنها محور جذب واستقطاب، ومن ثم هي مصدر للتوازن والانسجام بين الجماعات البشرية؛ وثانيا، "أمة وسط" من حيث الاعتدال في المزاج واجتباب الإفراط والتفريط؛ ثالثا: "وسط" من حيث موازين القيم والانظمة التي تقوم عليها، فالنسق القيمي الاسلامي يوازن بين القيم الفردية والجماعية والمسؤوليات؛ أي الواجبات والحقوق الاجتماعية..."²¹

وفي السياق ذاته، يبرز الأستاذ عبد العزيز برغوث- انطلاقا من مقارنة حضارية للمفهوم- الأمة الوسط هي جماعة بشرية متنوعة تعمل على تجسيد وتجديد الوعي بالحقائق الدينية والتاريخية والثقافية والنفسية والعمرانية للإسلام، تجمع ليس بالضرورة له انتماء عرقي أو إقليمي أو أجنبي محدد، فهو تجمع إنساني تبنى الإسلام ثقافة وحضارة، وبالتالي أصبح مستخلفا في الأرض، وبالتالي ليقوموا بوظيفة الشهادة على الناس، قبل القيام بهذه الوظيفة يتعين أن يكون لهذه الجماعة حضور وموقع متميز ليتصدى للشهادة بحسب تعبير د.شاهين- كما أشرنا آنفا-.

الوسطية حالة وجودية:

يعد الأستاذ أبويعرب المرزوقي من أبرز الباحثين الذين تصدوا لمفهوم الوسطية نقدا وتفكيكا؛ وذلك في معرض رده على الدكتور محمد عمارة، وقد فتح نقاشا وجدلا واسعين انحرط فيه الكثير من المهتمين بالموضوع، وقد نشرت جملة هذه التعقيبات في موقع اسلام اون لاين في نسخته القديمة؛ حيث تضمنت وجهات

¹⁹- شاهين، عبد الصبور، الأمة الفريضة الغانية، وزارة الأوقاف المغربية، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1996م

²⁰- ينظر موقع الشهاب، مقالة حول الوسطية للأستاذ عمر حيدوسي استرجع من الموقع بتاريخ 30 مايو/ أيار 2004

²¹- نفس المرجع السابق، الأمة القطب، دمنى أبو الفضل.

نظر من المفهوم بين معترض على معناه ودلالته المتداولة والشائعة في أدبيات الصحوة الإسلامية، وبين مؤول له وموسع في دلالاته.

مفهوم الوسطية القرآني لدى "المرزوقي"

تتعلق بالتوسط الوجودي؛ أي بالتوسط الذي يصف حالة موجودة خبريا، ولا يتكلم في التوسط القيمي الذي يكلف بتحقيق الوسط. فهو فيها جميعا خبري ووجودي وليس إنشائيا وقيميا. فالوسطية القرآنية لديه ليست قيمة مكلفا بها، وإنما هي حالة وجودية حاصلة ترتب عليها تكليف المسلمين بالشهادة، وهي بمعنى آخر **جعل إلهي في موقع لا اختيار بين نقيضين**. وقد توصل لهذا المعنى انطلاقا من تحليل الآية 143 من البقرة.

يقول المرزوقي: "وحتى نفهم المقصود بالبعد الوجودي الخبري في الوسطية القرآنية كما حددتها الآية 143 من البقرة، سنقيس الأمر على "إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا". فالجعل يتعلق بأمر حاصل وليس بفرض مكلف به؛ لذلك، فهو يشير إلى الوسطية الوجودية لا إلى الوسطية القيمية. إن الآية 143 تتكلم على "الجعل وسطا"، ومن ثم فهي تفيد أن الوسط حال وجودية يتصف بها المسلمون كالحال الوجودية التي يتصف بها البشر في مثال "الجعل شعوبا وقبائل". وكتاهاما حاصلة ويترتب عليها تكليف، وليست هي المكلف بها: التكليف بالتعارف في الآية التي نقيس عليها والتكليف بالشهادة في هذه الآية لتوفر شرطها، أعني الوساطة تماما كما أن التكليف بالتعارف شرطه التعدد الشعبي والقبلي والاختلاف الجنسي.

العلة التي تجعلنا نميل إلى اعتبار الوسطية المقصودة في الآية مؤلفة من المقومات التالية التي هي حال وجودية عليها الأمة الإسلامية في المعمورة: 1- الوسطية الجغرافية (وسط بين الحضارات الشرقية والغربية) 2- والوسطية التاريخية (بين الحضارات القديمة والحديثة) 3- والوسطية السلمية أو وسطية المنزلة في سلم الرتب التي تنتج عن تنظيم الحياة الجماعية (في سلم الحرية والعبودية غاية وأداة بين المستقيين والمستضعفين، أو بين الطبقات الثابتة في الهند القديم مثلا، وانحلال الروابط الفطرية؛ أي قبائل وشعوب بعض بلاد الغرب مثلا) 4- والوسطية في دورة العالم (الفاصل المبقي على التعدد ومن التواصل بين الحضارات في المعمورة) ويترتب على ذلك التكليف بالشهادة الناتجة عن تحقق تلك الشروط (شهودا على كل هؤلاء لكونها شرط النسب الجغرافية والتاريخية والسلمية والدورية بينها).²²

²² - ينظر موقع الملتقى www.almultaka.net

القرآني. نافية مماثلة منظومة الإسلام بوسطية "أرسطو" كخطوة أولى، ثم كاشفة عن تهافت المعنى التلفيقي التوسطي البيني، لتكشف نتائج هذه الأبحاث في نهاية المطاف؛ كون الوسطية هي في جوهرها موقع وجعل إلهي وحالة وجودية، وليست موقفا ولا مشروعاً ولا منهجاً للتغيير.

وبنظرنا الوسطية لا معنى لها بدون اقترانها بالشهادة على الناس التي تقتضي الحضور، والحال أن الأمة الإسلامية اليوم حاضرة بلا حضور، وبالتالي لا يزال شرط الشهادة على الناس غير قائم.

إن تجديد الخطاب الإسلامي المعاصر، لا بد أن يبدأ من تجديد المفاهيم وتغييرها لتتنغير الأحكام والتصورات والمعارف، ولا بد من إعادة النظر في الرؤية إلى العالم، وفحص وتمحيص هذا الخطاب الذي تحمله الأمة لفرز النافع منه والصالح عن غيره مما لا يصلح لعصرنا.

فأما الزبد، فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس يمكث في الأرض.



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com